١٠/٦/٦٧١
هدية الى مكتبة الروضة الحيدرية المقدسة
مدير مكتبة الروضة الحيدرية المقدسة
كلية الآداب

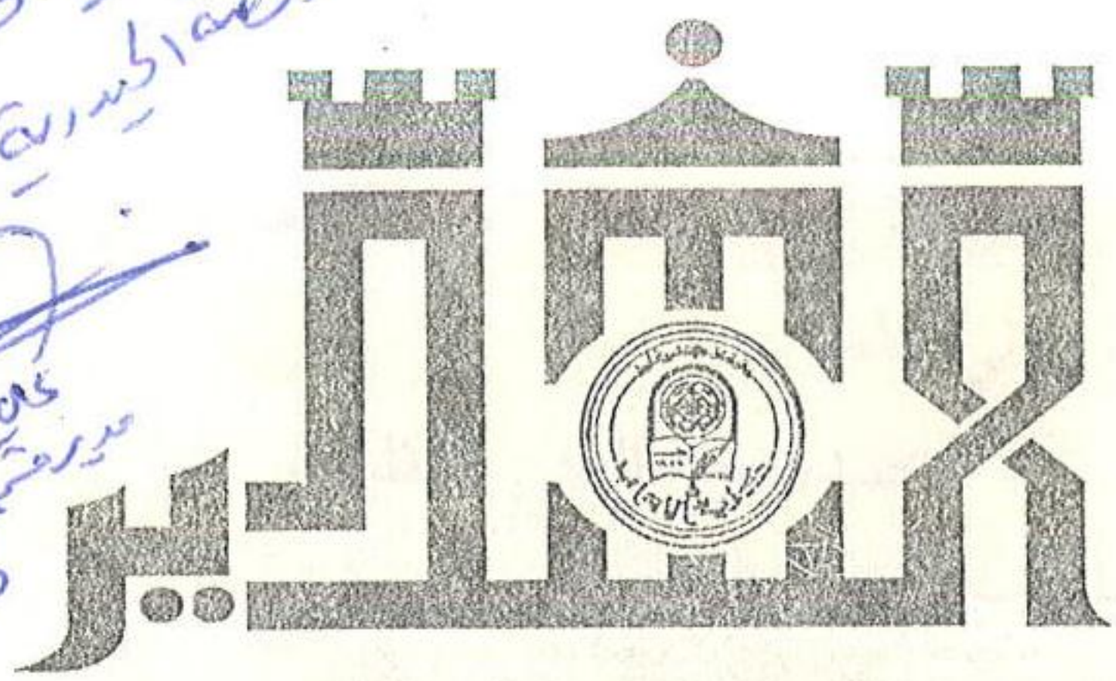

المبين

مجلة علمية محكمة

تصدر عن كلية الآداب / جامعة الكوفة

العدد الاول - السنة الاولى - 2003

رئيس التحرير
أ.د. عبد الامير كاظم زاهد

نائب رئيس التحرير
د. علاء حسين الرهيمي

الهيأة الاستشارية
أ.د عناد غزوان
أ.د صادق السوادني
أ.د علي حسين الجابري
أ.د وميض جمال عمر نظمي
أ.د عبد الاله رزوقي كربل
أ.د محسن عبد الحميد

هيأة التحرير
د. خليل عبد السادة ابراهيم
د. علي عظم محمد عباس
د. محمد حسن عبد الرحمن
د. عبد الصاحب ناجي البغدادي
د. حمزة [illegible] طان
حسين عبد حسين حمزة

ادارة تحرير المجلة
علي عباس عبد الحسين
مسؤول وحدة الاعلام والعلاقات العامة

التنضيد الالكتروني
نسرين داخل فهد
آلاء محمد حسن
سهى غني عزيز
رقية كامل محسن

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٥١٨
التاريخ ١٩/٦/٢٠١١
٣٥٨٤٠

نظرة تحليلية في كتاب حياة محمد (ص) للمستشرق الانكليزي وليم ميور

م.م. مشتاق الغزالي

تمهيد

لم تحظى موضوعات الشرق رغم تنوعها وغزارتها بأهتمام المستشرقين مثلما حظيَت السيرة النبوية الشريفة بذلك الاهتمام الكبير الذي يتجسد بوضوح في قول أحد الكتاب ، حينَ ذكر بأن ما أُلفَ في سيرة النبي محمد (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) بلغات أوربا حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي قد بلغ ألفاً وثلاثمائة كتاب [1] . فقد تناولت كتابات المستشرقين هذا الموضوع منذُ أزمنة تمتد إلى قرون العصور الوسطى الأوربية ، وتحديداً منذُ القرن الحادي عشر الميلادي ، فصورت سيرة المصطفى محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بصوره غير لائقة مستندةً في ذلك إلى الخيال المرسوم بدافع الحقد والكره أكثر من استنادها إلى المصادر [2] . ولسنا هنا بصدد الخوض في تلك التلفيقات و الأكاذيب التي حَيكت على أيدي المتعصبين المسيحيين ، وأنما قصدنا التمهيد لما أعقبَ هذه الكتابات .

بعد نهاية العصور الوسطى ، وتحديداً مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأت الكتابات الاستشراقية تتبع منهجاً مغايراً لما ساد في السابق بفضل عوامل التطور التي شهدتها أوربا خلال هذه الفترة كظهور المدارس الفكرية والفلسفية التي ركز أنصارهما على مبدأ النقد والتحليل في أبحاثهم وآرائهم أكثر من تأكيدهم على المسائل التي كانت تسيطر على أفكار و كتابات العصور الوسطى [3] . فضلاً عن ظهور بعض المؤلفات المنصفه لسيرة الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وهي تحمل صورة جديدة وحسنه تختلف عما سادَ في كتابات العصور الوسطى ، إذ أثرت هذه المؤلفات في إغناء ذلك المنهج الأوربي . ومن بين تلك المؤلفات كتاب (Vid de Mahomet - حياة محمد) للمستشرق الفرنسي (

دي بولانفلييه) الذي صدرَ في سنة ١٧٣٠ [٤]. ويضاف إلى كل ذلك تحقيق مجموعة من المخطوطات العربية ونشرها ، مما ساهم في إغناء الباحثين بمزيد من المصادر العربية المتعلقة بالسيرة خلال هذه الفترة .

وبناءاً على ذلك يفترض أن يكون منهج الكتابة الاستشراقية قد تطور وأصبح منهجاً علمياً يعتمد على المصادر المتعلقة بالموضوع وعلى الرؤية التحليلية العلمية ، لا على الخيال المغذى بالحقد والكرة .

وهنا ينطرح التساؤل الآتي : هل تغيرت الرؤية الاستشراقية خلال هذه الفترة لسيرة النبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بما ويتوافق مع ما أصابَ المنهج العلمي الأوربي في الكتابة التأريخية من تطور ؟ .

وللإجابة على هذا التساؤل سنأخذ كتاباً لأحد المستشرقين كنموذج لكتابات هذه الفترة وهو كتاب (THE LIFE OF MOHAMMAD FROM ORIGINAL SOURCES - أي حياة محمد من مصادرها الأصيلة) للمستشرق البريطاني السير وليم ميور ، الذي طبع لأول مرة في لندن سنة (١٨٦١) ، ويصفه أحد المستشرقين : بأنهُ لا يزال لا نظير لهُ في اللغة الإنكليزية [٥] .

المصادر الأولى للسيرة النبوية الشريفة

يبدأ ميور في مقدمة كتابهِ ناقداً مصادر السيرة النبوية ، ومحاولاً عن طريق الأفتراض المنطقي والبرهان العقلي الوصول إلى إثبات الخلل في مصداقية هذه المصادر . فهو يرى أن التراث التأريخي بشكل عام فيه أحداث فعلية وأُخرى مفترضة ، وأنهُ من الممكن أن تتعرض هذهِ الأحداث للتشويه والتحريف إذا كانت وسيلة نقلها غير مكتملة ، أما إذا كان لهذهِ الأحداث سجلات معاصرة ترتفع إلى درجة التأكيد فيمكن الاعتماد عليها والوثوق بها على قدر أمانة ناقلها المعاصر[٦] .

ثم يعلق ميور [٧] على أحداث السيرة قائلاً : " لا ينتمي السرد الذي نمتلكهُ الآن حول جذور الإسلام إلى أية واحدة من هذهِ الأنواع ، أنهُ أسطوري لأنهُ يحتوي على عدد كبير من الأساطير الخاصة مثل سطوع ضوء محمد وتطهير قلبهُ ، وهو

تراثي طالما أن المادة الرئيسة للقصة يرويها لنا الترتيل الشفوي الذي لم يتم تدوينهُ إلا أن بلغ الإسلام نضجهُ التام ".

أننا نتفق تماماً مع رؤية المستشرق ميور ، بشأن التراث التأريخي الذي يراه قد تضمن أحداثاً فعلية وأخرى مفترضة ، وأن إمكانية تشويه هذه الأحداث هي مسألة واردة ، خاصة إذا كانت وسيلة نقلها غير مكتملة . ألا أننا نجدهُ قد تجنى كثيراً على مصادر السيرة ، عندما عدَّ المادة الموجودة هي مادة أسطورية ، وبدلاً من أن ينظر في أحداث السيرة خلال الفترة المكية أو الفترة المدنية ليقرر بعدها هل كانت مادتها أسطورية أم لا ، توجه مباشرةً إلى المادة التي تناولت حياة الرسول الأولى ـأي قبل التكليف الإلهي للنبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بالرسالة ـ ليقول بأنها أسطورية لأن تسجيلها الذي تم فيما بعد أعتمد على الرواية الشفوية .

والتناقض يحصل عند ميور ، عندما يوافق على الأعتماد والوثوق بمادة السجلات المعاصرة للأحداث التأريخية ، ثم ينعت مادة السيرة بأنها أسطورية . فهل تمتعت أي مادة تأريخية على الإطلاق بأهتمام وعناية وتدقيق المؤرخين مثلما شهدتهُ مادة السيرة النبوية الشريفة ؟ وهل توفرت مدونات معاصرة أو قريبة من الأحداث ، مثلما توفرت لهذهِ المادة ؟ وأين نجد في عموم التواريخ العالمية ، مدونات تهتم بالإسناد ـ الرواة ـ وتدقق في مصداقية الرواية مثلما شهدهُ الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية ، حتى حمل لنا هذا الاهتمام بالإسناد إلى نشأت علم خاص سمي (علم الرجال) [٨] .

أذن فقد بالغ ميور كثيراً برؤياه هذه ، وتغافل عما وفرهُ القرآن الكريم لنا من معلومات خاصه بالسيرة ، وهو بلا شك أوثق وأصدق مصدر ، فضلاً عن هذا فهو معاصر لسيرة النبي ومسجلاً لأهم أحداثها وظروفها . ثم تأتي بعد القرآن الكريم كتب السيرة والمُغازي ، وهي مؤلفات أحتوت على تفاصيل كثيرة وغزيرة تخص السيرة ، ويقف في مقدمتها السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق (ت :١٥١ هجرية) ، الذي يعد مؤلفه أهم وأول مصنف متكامل وشامل للسيرة النبوية قد وصل ألينا . و كان أبن إسحاق قد أعتمد في سيرتهِ على رواة سبقوه بجمع مادة السيرة كان من

أبرزهم عروة بن الزبير بن العوام (ت : ٩٤ هجرية) ، وآبان بن عثمان بن عفان (ت : ١٠٥ هجرية) ، و أبن شهاب الزهري (ت : ١٢٤ هجرية) [٩] .

ومن الواضح أن ما جاء في مؤلف أبن إسحاق لم يكن بعيداً عن أحداث السيرة ، إذ اعتمادهُ على عروة بن الزبير بن العوام الذي أعتمد على السيدة عائشة (رضي الله عنها) زوجة النبي (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، وكذلك اعتمادهِ على آبان بن عثمان بن عفان قد وفر لأبن إسحاق معلومات دقيقة وواقعية للسيرة لا سيما و أن القرآن الكريم المعاصر لحياة الرسول الكريم كان قد أعطى الإطار العام لأحداث السيرة ولو بصورة مختصرة ، وهذا الأمر يجعلنا نستبعد تماماً الصفه الأسطورية التي أطلقها ميور على أحداث السيرة لا سيما ما يخص منها الأحداث التي وقعت بعد المبعث الشريف .

حياة الرسول محمد (صلى الله عليه و آله وسلم) الأولى

ومن القضايا التي أثارها ميور في سيرة المصطفى (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) ، هي تأثرهِ بالديانات السابقة ـ اليهودية و المسيحية ـ من خلال رحلتيّه إلي الشام واستقائه من تلك الأديان بعض الطقوس العبادية والممارسات الدينية وتعرفهِ على قصص الأقوام التي خلت من كتبهم المقدسة .

فحين يتناول رحلة الرسول (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) الأولى إلى سوريا والتي رافق بها عمهُ أبو طالب وهو بعمر (١٢ سنة) يشير ميور إلى الآثار والرموز القديمة والأساطير اليهودية وتأثيرها عليهِ وهو يشاهدها لأول مره [١٠] . ويجد ميور بأنها كانت ذات تأثيرات كبيرة على عقلهِ التأملي ، لأنها قدمت لهُ قصصاً وأساطيرَ مُدهشةً ومثيره [١١] .

ويواصل المستشرق ميور حديثهُ عن هذهِ التأثيرات ذاكراً الطقوس المسيحية التي شاهدها الرسول الكريم (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) واداء المجتمع المسيحي لها ، فضلاً عن العادات الأجتماعية القائمة على أساس الديانة المسيحية والكنائس بصلبانها وصورها ودق أجراسها ، والتجمعات المتكررة لأجل العبادة ، كل هذهِ

المشاهدات يرها ميور قد أستولت على انتباههِ واهتمامهِ فأثرت تأثيراً عميقاً في نفسه [١٢] .

ثم يحاول ميور الربط بين الرحلة الأولى للرسول (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) وهو بعمر (١٢ سنة) وبين الرحلة الثانية التي قام بها وهو بعمر يناهز الرابعة والعشرون ، أي بعد ما يقرب من أثني عشرة سنة . ويقول بهذا الصدد : "... إتخذت القافلة الطريق الأعتيادي إلى سوريا ، الطريق الذي قطعهُ محمد مع عمهِ قبل ٣٠ سنة [١٣] ، ووصلوا بصرى مباشرةً ؛ والتي تقع على طريق دمشق ... وحصلَ العقل التأملي لمحمد الذي وصل إلى نضجهِ الآن ... على انطباعات عميقة و دائمة من كل ذلك الذي شاهدهُ عند رحلتهِ "[١٤] . وفي نهاية هذا العرض التأريخي يقدم رأيهُ قائلاً : " ألا أننا متأكدين من حقيقة أن محمد لم يُفوتِ أية فرصه للبحث في ممارسات ومعتقدات المسيحيين السوريين أو التحدث مع الرهبان ورجال الدين الذين يصادفهم في طريقهِ " [١٥] .

ومن كل ذلك حاول ميور الوصول تدريجياً إلى نتيجة مهمة تتفق والفكرة الأستشراقية المتأصلة التي تقول بأن القرآن الكريم هو من صنع و إنشاء النبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، وأن ما جاء فيه من ذكر للديانتين اليهودية والمسيحية ومن ذكر لِقصص الأنبياء والأقوام السالفة ، هي أساساً المعلومات التي حصل عليها الرسول (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) من خلال رحلتيَه إلى سوريا و أحاديثهِ مع رجال الدين .

لقد أشارة كتب السيرة والتأريخ إلى الرحلتين اللتين قام بهما الرسول (صلى الله عليهِ و آلهِ و سلم) إلى الشام ، إذ ناهز عمرهُ الشريف في الرحلة الأولى (١٢ سنة) ، وفي الثانية (٢٤ سنة) . والفارق كما هو واضح (١٢ سنة) بين الرحلتين ، و (١٦ سنة) بين الرحلة الثانية وتلقيهِ للوحي .

بداءاً لا يمكن إنكار حقيقة إن الطقوس والعبادات والكنائس والعادات الدينية (اليهودية والمسيحية) كان لها تأثير على فكر وبصيرة العربي القادم من مجتمع غارق بالوثنية إلى مجتمعات أُخرى تختلف في ممارساتها الدينية وأفكارها العقائديه .

ولكن هل يصل هذا التأثير إلى الدرجة التي وصفها ميور ! وهل تكفي المدة التي قضاها الرسول (صلى الله عليهِ و آلهِ وسلم) خلال رحلتيَه إلى الشام لصياغة ديانة جديدة على غرار تلك الأديان بكل ما تحويهِ من عبادات و طقوس وأساطير مع الأخذ بنظر الأعتبار أن عمر الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) في الرحلة الأولى كان (١٢ سنة) وهو عمر لا يمكن معهُ الإدراك الديني المؤدي إلى صياغة ديانة جديدة . وأن مما يؤكد مبالغة ميور في وصف التأثيرات إلى هذا الحد الكبير ، أن الرحلة الثانية للرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، لم تأتي سعياً للإطلاع والبحث عن ممارسات و معتقدات اليهود والمسيحين أو التحدث مع رجال الدين والرهبان ، وأنما جاءت لأداء عمل كلف بهِ الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) من قِبل السيدة خديجة (عليها السلام) ، وهو المتاجرة بأموالها في الشام ، وهذا العمل الذي أرتبط بهِ الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) كان كافياً لأشغالهِ عن أي شيء آخر والأنصراف على أكمل وجه . ولو كان الرسول الكريم كما يدعى ميور يسعى في كل فرصة للبحث عن ممارسات ومعتقدات تلك الأديان ، لكانت لهُ رحلات أُخرى أو اقامات بين تلك المجتمعات المسيحية واليهودية لفترات من الزمن ليطلع ويستقي منها ما يشاء . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . ثم أن القرآن الكريم الذي يعدوه من أنشاء النبي محمد اعتماداً على كتبهم ، قد أشار في آيات عديدة إلى الأنحرافات التي أصابت الديانات المسيحية واليهودية ، أنحرافات في صميم عقيدة كل ديانة منهما . فهل من شيم المقلد المتبع المستقي أن يأتي بهكذا حقائق من نفسهِ ؟ أن العقل والمنطق لا يريان في هذه الحقائق آلا وهي صادرةُ عن الذات العليا (الله جل جلالهُ) وهي حقيقة لا لَبسَ فيها ولا بهتان .

نزول الوحَي الشريف على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

اولا نجد تطوراً في رؤية المستشرق ميور لمسألة الوحي ، إذ أنهُ يبقى في إطار الرؤية الأستشراقية السائدة ، التي لاترى بأن الله سبحانهُ وتعالى قد أنزل الوحي على الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) كما هو حال مَن سبقهُ من الأنبياء (أنا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحَ والنبيينَ من بعدهِ وأوحينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والأسباطَ وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهَارونَ وسُليمانَ وآتينا دَاوَد زَبوَرا . ورسلاً قد قصصناهم عَليكَ من قبلُ ورسلاً لم نَقصُصهم عَليكَ وكلمَ اللهُ مُوسَى تَكلَيما) (١٦).

فالمتتبع لكتاب (حياة محمد) يكتشف بأن مؤلفهِ يسعى جاهداً لتصوير الوحي الشريف على أنهُ (حدس) كان يشعر بهِ الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) و يتوهم بأنهُ الوحي ، ويفسر لنا ميور هذا الألتباس الذي يرى بأن الرسول قد وقع فيه ، بأنهُ ناتج عن الأنصراف إلى التأمل والتفكير المنعزل والطويل بحثاً عن الدين الحقيقي . وليؤكد ميور على رؤيتهِ هذهِ يشير إلى أن الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) قد أستخدم الوحيَ لتحقيق أهداف وغايات دنيوية لصالحهِ ، متطرقاً لموضوع الآية القرآنية (١٧) التي أمر الله سبحانهُ وتعالى فيها الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بالزواج من السيدة زينب بنت جحيش (رضي الله عنها) كمثال عن هذا الأستخدام ، ولهذا السبب فهوَ يرفض أن ينظر إلى الوحي على أنهُ صادراً من الله تعالى ، وأنما يؤكد على كونهُ حدس لا يخرج عن الذات البشرية .

وغريب جداً أن نجد مستشرقاً مثل ميور، يُسَرح الخيال ليلقي بهِ في متاهة عدم التفريق بين الوحي الصادر من الذات العليا وهو الله جلَ وعلا وبين الحالات النفسية الداخلية التي يمر بها الإنسان ويبدو لي أن قول الدكتور محمد حسين علي الصغير (١٨) خير ما يبين هذهِ الفروق إذ يقول :" أن ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن ظاهرة الوحيَ ، قد يراد بها المكاشفة ، وقد يعبر عنها بالوحيَ النفسي تارةً ، أو الإلهام المطلق تارةً أُخرى ، دون تحديد مميز لا يتوافق مبدئياً مع دراسة المنهج

الموضوعي لظاهرة الوحيَ ... وإذا كان الوحيَ فعلاً مميزاً ، فهوَ صادر عن فاعل مُريد ، وهذا الفاعل المُريد هو الله تعالى ، وليس الكشف والإلهام كذلك ، أن مرد الإلهام يعود عادةً إلى الميدان التجريبي لعلم النفس ، ونزعة الوحي النفسي في أنقداحُها تعتمد على التفكير في الاستنباط ، والمكاشفة تتأرجح بين الشك واليقين . أما الوحيَ فحالة فريدة مخالفة لا تخضع إلى التجربة أو التفكير و متيقنة لا مجال معها للشك ، مضافاً إلى أن حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسيَ لا شعورية و لا إرادية ، والوحي ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك التامين " .

ثم أن مصدر الإلهام والحدس الواقع ، هو باطني (داخلي) ومتأثر بالتجربة البشرية ، في حين أن مصدر الوحي هو خارجي غير متأثر بنفسهِ الداخلية وغير ملتزم بالإطار العام للعقل البشري ، لأنهُ ينقل للإنسان حقائق تتجاوز نطاق عقله.

ونَحنُ نعرف أن القرآن الكريم نَزلَ على الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) مَنجماً على مدى ما يقرب من ثلاث وعشرين سنةً ، فهل يُعقل أن يلازم الحدس أو الإلهام للرسول طيلة هذهِ السنوات ويكون معهُ في كل ما مرَ من أحداث صغيرة وكبيرة شهدها الإسلام ؟ وهل يُعقل أن يحمل الحدس أو الإلهام كل هذهِ الحكمة والأحكام ، وكل هذا الأعجاز البلاغي والعلمي في القرآن ؟

زواج الرسول (صلى الله عليهِ وآله وسلم) المتعدد

وعندما يتعرض ميورلموضوع زواج الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) المتعدد ، نلاحظ عليهِ الابتعاد تماماً عن المنهج العلمي الموضوعي في تقديم تفسير معقول للأحداث التأريخية . ففي هذا الموضوع يكرر أفتراءات العصور الوسطى ، ويرى بأن حب الجنس والشهوة كان وراء هذا التعدد في الزوجات ، واصفاً رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بالأتي : " قام بالتجربة الخطيرة لتعدد الزوجات في عمر بلغ الرابعة والخمسون من خلال الزواج بعائشة التي مازالت طفلة... ووقع محمد فريسة لغريزة الجنس القوية حالما تم تجاوز الحدود الطبيعية

لقيود الزواج ، وفي عمر السادسة والخمسون تزوج حفصه ، وفي السنة التالية تزوج زينب بنت خُزيمه وأم سَلَمه ، ولكن رغباتهِ لم تشبع بعدد الحريم الذي أمتلكهُ سلفاً كعادة العرب في السابق ، واصبح متعدد الزوجات أكثر من أي واحد من أتباعهِ وبتقدم العمر كان يسعى وراء الانغماس الجديد والمتنوع باللذات "[١٩] .

لقد تزوج الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) من السيدة خديجه (ع) وهو بعمر يناهز الخامسة والعشرين ، ولم يعدد بزوجة ثانية أو ثالثة حتى بلوغهِ العقد الخامس من عمرهِ الشريف [٢٠] . أي أنهُ ولأكثر من خمس وعشرين سنة كان عازفاً عن التعدد في الزواج رغم أن التعدد كان من عادات العرب قبل الإسلام . فهل يُعقل أن يُوصف شخص بحبهِ للجنس والشهوات وهو يرغب عن التعدد في الزواج في قمة شبابهِ وعنفوانهِ ولا يتزوج ثانيةً إلا بعد أن يتجاوز سن الخمسين ؟ ثم أن الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) لم يتزوج النساء العديدات إلا لِتحقيق مجموعة من الغايات والأهداف ، وقد يقرب لنا هذا التفسير معرفة أن نساء الرسول (عليهنّ السلام) كُنَّ جميعاً ثيبات كبيرات في السن من الأرامل أو المطلقات ، ما عدا السيدة عائشة فهي الباكر الوحيدة بينهنّ .

ولو تصفحنا في خلفيات الزيجات ، لوجدنا أننا أمام أغراض ودوافع تكريمية وتشريعية وسياسية واجتماعية ، جعلت من الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) يسعى إلى هذا التعدد . فالتعدد في الزواج كان من الوسائل المهمة التي أعتمدها الرسول لإيصال وتبَين الأحكام الشرعية إلى أكبر عددٍ ممكن من المسلمات ، وأخص بالذكر هنا الأحكام الخاصة بالنساء ، كأحكام الغسل والطهارة والحيض والنفاس وغيرها ، إذ كان رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) يجد الحرج في تبينها وتوضيحها للمسلمات ، ولذلك فقد أستعان بزوجاتهِ (عليهنّ السلام) لإيصال هذهِ الأحكام . وأكيد فأن غاية كهذهِ كانت لا تُدرك ولا تتحقق عن طريق زوجة واحدة ، بل يتطلب الأمر عدداً من الزوجات . ويمكن أن نلمس هذهِ الغاية تماماً ، إذا ما أدركنا العلاقة بين سعي الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) للتعدد في الزواج وبشكل خاص ما بين السنة الثالثة والسنة السابعة للهجرة ، وبين ما ركَز

عليهِ الرسول خلال هذهِ المُدَة من عمل أنصب بشكل رئيس على بيان وتوضيح شريعة الإسلام أمام المسلمين والمسلمات . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فأن الزواج المتعدد ، كان من الوسائل الهامة في تحقيق دوافع أُخرى تكريمية وتشريعية وسياسية واجتماعية [٢١] لا مجال للتفصيل فيها الآن .

علاقة الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بيهود مدينة يثرب

ومن الموضوعات المهمة التي عوَّلَ عليها ميور كثيراً في محاولة تشويه السيرة العطِرة لرسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، هو موضوع علاقتهُ بيهود المدينة . فقد ركزَ على العقوبة التي تعرض لها يهود بني قُريظه على يد المسلمين و راحَ يُصور لنا الواقعة مستخدماً العبارات القوية المؤثرة التي لا نجد لأغلبها أي أثر في كتب التأريخ عموماً . ويبدو أنها كانت تنبع من وحي خيالهِ الخصب . فممها يقول : "ما زال الأسرى تحت رحمة محمد وقد تم جرهم طويلاً ... وفصلوا عن النساء والأطفال وزودوا بالتمور وقضوا ساعات الظلام بالصلاة والثبات ... وخلال الليل تم حفر الخنادق الكافية لاحتواء الأجساد الميتة للرجال عبر ساحة سوق المدينة وشاهدَ محمد بنفسهِ المأساة في الصباح وأمر بجلب الأسرى الرجال على شكل مجاميع خمسة أو ستة في كل مرة ، وكانت كل مجموعة تجلس على شكل صف على ضفة الخندق تنتظر قبرها حيث تُقطَع رؤوسها هناك وتُدفن الأجساد . وقد جُلِبت المجاميع الواحدة تلوَ الأخرى حتى ذُبح الكل " [٢٢] . ثم أمعن في توظيف وقائع عقوبة بني قُريظة لإظهار الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بمظهر القاسي من خلال القول الأتي : " وبعد هذهِ المجَزرة رَجعَ محمد من المشهد المُرعِب لِيسلي نفسهُ بريحانة التي ذبح زوجها وكل أقاربها الذكور " [٢٣] .

وإذا ما تتبعنا تحليلات وتفسيرات ميور لهذهِ الحادثة ، نجدهُ يجعل من عدم تقرب اليهود لدعوة الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وعدم أعتناقهم الدين الإسلامي هو السبب في قسوتهِ الشديدة معهم . وهذا دون شك تفسير مبني على

الاستنتاج النابع من فكر حاقد مغرض بعيد كل البعد عن منهج البحث العلمي . فكتب التأريخ التي من المفترض أن يكون ميور قد أعتمدها توضح طبيعة العلاقة مع اليهود والتي قامت بعد هجرة الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) إلى المدينة مباشرةً ، وأول ما قاموا بهِ إنكار نبوتهِ ، رغم معرفتهم بصدقهِ كما جاء في القرآن الكريم (ولَمَا جاءهم كِتابُ من عندَ الله مُصدقُ لِما معهم وكانوا من قبلُ يستَفتحُونَ على الذين كَفروا فلما جاءهُم ما عُرِفُوا كَفرَوا بهِ فَلعنةُ اللهِ على الكافرينَ) [٢٤] . ولم يكتفوا بإنكار نبوتهِ بل وقفوا منهُ موقفاً سلبياً وسلكوا في معارضتهِ كل سبيل حتى لو كان الكفر بوحدانية الله تعالى. فقد ذُكر أن وفداً من اليهود ذهبوا إلى مكة لتأليب القُرشيين على الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) قبل معركة الخندق ، فسألهم المشركين عن الأفضل ديناً ، هل هو دين الإسلام أم دين قُريش ، فَشهدَ اليهود بأن القُرشيين على وثنيتهم أفضل من دين محمد على توحيدهُ [٢٥] . ولذلك نزل قول الله تعالى فيهم (ألم ترَ إلى الذين أُوتُوا نَصيباً مِنَ الكِتابِ يؤمَنونَ بالجبتِ والطَاغوتِ ويقولونَ للذينَ كَفَروا هؤلاءِ أهدى مِنَ الذينَ أمنوا سبيلا [٢٦] كما كان الضغط الاقتصادي من جملة توجهات وأساليب اليهود للتأثير على العمليات التجارية وحركة الأسواق في المدينة ، فضلا عن كونهم من يمنحون القروض بالفائدة ـ الربا ـ وكان المسلمون في أول عهدهم بالمدينة قليلي المال [٢٧] ، ولذلك أستخدم اليهود الجانب الاقتصادي لإضعاف وإسقاط المجتمع الإسلامي الناشئ .

وبينما اليهود كذلك مستمرين في آذاهم للرسول(صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) والمسلمين ، كان عليهِ الصلاة والسلام يواجه الأذى والأعتداءات بالصبر والتسامح ، ومع استمرار وازدياد الأذى اليهودي وتشكيلهِ خطراً على مستقبل الأسلام والمسلمين ، تطلب أن يتخذَ الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) موفقاً جديداً معهم يَقوم على أساس من الحزم والشدة بدلاً من العفو والتسامح ، فليس من صالح المسلمين أن تستمر السياسة الأولى ، نعم لقد أجلى الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) يهود بني قينقاع عن المدينة ، بسبب أستمرارهم في أذية المسلمين [٢٨]

، ثم أجلى يهود بني النضير ، لأنهم حاولوا أغتيالهُ عليهِ الصلاة والسلام [٢٩]، ولم يبقى في المدينة سوى يهود بني قُريظة الذين كان عليهم أن يتعظوا من العقوبة التي أصابت بني قينقاع والنضير ، وأن لا يجازفوا بنقض العهد مع رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، فلم يعتبروا لما سَبق وتأمروا مع جبهة الأحزاب في غزوة الخندق للقضاء على دين الإسلام والمسلمين ، وقد شكلوا بموقفهم هذا خطراً كبيراً هدد دين الإسلام بالزوال إلى الأبد .

فبينما كان المسلُمون يواجهون خطراً كبيراً متمثلاً بجيش الأحزاب ، علموا بخيانة بني قُريظة وتأمرهم ، فكان لهذا الأمر وقع كبير على نفسية المسلمين وروحهم المعنوية ، ولنا أن نتصور هذا الموقف الصعب الذي مرَّ بهِ الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) والمسلمين من خلال القول الأتي :" وعظُمَ عند ذلك البلاء ، وأشتدَ الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظَنَ المؤمنون كُلَ ظن ونَجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال مصعب بن قُشير ... كان محمد يَعدنا أن نأكل من كنوز كِسرى وقَيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسهِ أن يذهب إلى الغائط " [٣٠] . نعم لقد أدى تأمر بني قُريظة إلى أن يجعل المسلمين في موقف صعب ، ظَنَ أغلب الفريقين بأنها نهاية الإسلام ، ولكن إرادة الله كانت هي الغالبة و قد وصفها الله تعالى في كتابهِ الحكيم بقولهِ (إذا جَاءوكُم من فَوقَكم ومِن أسفَل منكم وإذ زَاغت الأبصارُ وبَلَغت القلوبُ الحَناجِر وتَظُنّون بالله الظُنونَا . هنالكَ أبتلَى المُؤمنَون وزلزلوا زِلزَالاً شَديداً و إذ يَقُولُ المُنافقونَ والذّينَ في قلوبَهم مَرضُ ما وعَدَنا اللُه ورَسوله آلا غُرُوراً . وإذ قالت طائفةُ منهم يا أهلَ يثربَ لا مَقامَ لكم فأرجعوا ويَستأذنُ فريقُ منهم النَبيّ يقولون أن بيوتَنا عَورةُ وما هي بعورة أن يريدُونَ آلا فِرارَا) [٣١] .

وعليهِ فالرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) لم يبادر إلى الأعتداء على يهود المدينة ، بل أتسمَ تعاملهُ معهم منذُ البداية بالعفو والتسامح والصبر على الأذى ، وفي مقابل هذا كان موقف اليهود يتسم بالحقد والعدائية ، وقد عبرت عن ذلك الحرب الفكرية والأقتصادية وحتى العسكرية التي شنوها على الإسلام والمسلمين

، وقد واجه الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) هذهِ الأعتداءات بما يقتضي والمحافظة على دين الإسلام والمسلمين (٣٢) .

أخيراً ومن خلال الإطلاع على كتاب (حياة محمد) لمستشرق السير وليم ميور ، فقد تكونت لدينا جملة ملاحظات نُوجزها بالأتي :

أولاً : يُصنف المستشرق السير وليم ميور بأنهُ من مستشرقي الدرجة الأولى ، ومن المتخصصين بسيرة النَّبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، وأن مؤلفهِ هذا (حياة محمد) مؤلف مُعتمد عند القارئ الإنكليزي ، حتى أن المؤسسات الأكاديمية الأنكليزية المتخصصة بالشرق تعتمد هذا المؤلف في دراسة سيرة النبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) .

ثانياً : أن المستشرق ميور أعتمد على مصادر السيرة العربية الأولى مثلما جاء في عنوان كتابهِ (حياة محمد من مصادرها الأصيلة) ، ولكنهُ لم يتبع منهج البحث العلمي الصحيح في استخدام هذهِ المصادر ، إذ كثيراً ما كان يوظف استخدام هذهِ المصادر بما يخدم وتوجهاتهِ الغير موضوعية ، كما أنهُ لا يعرض الرواية التأريخية كاملةً ، بل أنهُ في الغالب كان يقتطع نصوصاً أو أحداثاً معينة ليؤطرها بتفاسيره الغربية والبعيدة عن الصحة .

ثالثاً : أن الصفة الغالبة على هذا الكتاب هي عدم الموضوعية والتأثر بالعاطفة الدينية ، لا سيما وأن ميور قد عُرفَ بأنهُ شديد التعصب للمسيحية ، وقد أشترك في أعمال التبشير بالمسيحية في شمال الهند ، وهناك أصدر كتاباً حمل عنوان (شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية) ، والذي حاول فيه أن يبين أن على المسلمين الإقرار بشهادة القرآن بصحة التوراة والإنجيل كما هما في نصهما الحالي .

هوامش البحث

(١) العباســـي ، محفوظ ، الغـــرب نحو الدرب بأقلام مفكريه ، (بغداد ـ ١٩٩٠) ، ص٩١

(٢) DANIEL, NORMAN, ISLAM AND THE WEST THE MAKING OF AN LMAGE, (EDINBURGH – ١٩٦٠), PP. ١٤٠- ١٤٦; SOUTHERN, R. W, WESTERN VIEWS OF ISLAM IN THE MIDDLE AGES, (HARV ARD – ١٩٦٢), PP. ٢٨ – ٣٢.

(٣) ينظر : الغزالي ، مشتاق بشير ، تطور الأستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة إلى كلية التربية (أبن رشد) ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١ ،ص٦٢ ـ ٦٣ .

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقين ، ط٣ ، (بيروت ـ ١٩٩٣) ، ص ص١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٥) ARBERRY, A.J, BRITIS HORIGNALISTS (LONDON – ١٩٤٥), p. ٢٢.

(٦) MUIR, SIR WILLIAM, THE LIFE OF MOHAMMAD FROM ORIGINAL SOURCES, (EDINBURGH – ١٩٢٣), P.XIII.

(٧) IBID, P. XIII.

(٨) أدى الأهتمام بالإسناد إلى نمو علم الرجال الذي يدرس أسماء الرواة والعلماء ، وسني ولادتهم ووفياتهم ، وقد احتوت كتب الرجال على كُنى المترجمين وألقابهم ونسبهم إلى العشائر أو المدن أو الحرف والى بعض الحوادث التأريخية والى أبرز شيوخ المترجمين ، والوظائف التي شغلوها والى الرحلات ، مما يقدم مادة ثمينة عن الأصول الأجتماعية والقبلية والعرقية والحرفية للعلماء . ينظر في ذلك : العلي ، صالح أحمد ، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام ، مؤسسة الرسالة ،(بيروت ـ لا . ت)، ص٣٣ .

(٩) ينظر : حماده ، فاروق ، مصادر السيرة النبوية وتقويمها ، (المغرب ـ ١٩٨٠) ، ص٤٦ ـ ٢٧ .

(١٠) MUIR, THE LIFE OF MOHAMMAD, P. ١١.

(١١) IBID, P .١١.

(١٢) IBID, P. ١١□٢.

(١٣) ورد هذا الرقم خطأ عند المستشرق ميور ، والصحيح هو أن الفارق بين الرحلة الأولى للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والرحلة الثانية كان أثني عشرة سنة .

(١٤) MUIR, THE LIFE OF MOHAMMAD, P. ٢٠ – ٢١.

(١٥) IBID, P. ٢١.

(١٦) النساء ، الآيات ، ١٦٣ - ١٦٤ .

(١٧) قولهُ تعالى (وإذ تقول للذي أنعمَ اللهُ وأنعمتَ عليهِ أمسِك عليكَ زَوجكَ وأتقِ اللهَ وتُخفي في نفسكَ ما اللهُ مُبديهِ وتخشى الناسَ واللهُ أحقُ أن تخشاه فلما قضى زيدُ منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنُ وطراً وكان أمرَ اللهِ مفعولاً) . الأحزاب ، الآية ٣٧ .

(١٨) الصغير ، محمد حسين علي ، ظاهرة الوحي والمستشرقون ، بحث منشور في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي ، (النجف - ١٩٨٦) ، ص٩٦ - ٩٧ .

(١٩) MUIR, THE LIFE OF MOHAMMAD, P. ٥١٥.

(٢٠) ينظر : أبن هشام ، محمد بن عبد الملك ت : ٢١٨ هـ ، السيرة النبوية ، تحقيق همام سعيد ومحمد بن عبد الله ، (الأردن - ١٩٨٨) ، مج٤ ، ص٣٨٧ - ٣٨٨ .كذلك : الطبري ، أبو جعفر بن جرير ت : ٣١٠ هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، (بيروت - لا. ت) ، ج٢ ، ص١٩٦ - ١٩٧ .

(٢١) لمزيد من التفاصيل ينظر : الغزالي ، مشتاق بشير ، تطور الأستشراق البريطاني في كتابة السيرة ، ص ص١٣٧-١٤٣ .

(٢٢) MUIR, THE LIFE OF MOHAMMAD, P. ٣١٨.

(٢٣) IBID, P. ٣١٩.

(٢٤) البقرة ، الآية ٨٩ .

(٢٥) ينظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٤٤ . وقد علق على هذهِ الحادثة المستشرق اليهودي (إسرائيل ولفنسون) قائلاً :" كان من واجب هؤلاء - يقصد اليهود - ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش أن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ، وهو أقرب إلى عقيدتهم ولو أدى بهم الأمر إلى أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم " . الفحام وآخرون ، محمد محمد ، محمد نظره عصرية جديدة ، ط٢ ، (بيروت - ١٩٧٩) ، ص١٢ .

(٢٦) النساء ، الآية ٥١ . في تفسير الآية الكريمة ينظر : الطوسي ، أبو جعفر محمد بن الحسن ت : ٤٦٠ هـ ، التبيان في تفسير القرآن ، (النجف - ١٩٥٧) ، مج٣ ، ج٥ ، ص٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢٧) ينظر : العاملي ، جعفر مرتضى ، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ط٤ ، (بيروت - ١٩٩٥) ، ج٦ ، ص٣١ .

(٢٨) ينظر : أبن هشام ، السيرة النبوية ، مج ٢ . ص ٧٠ .

(٢٩) ينظر : م.ن ، مج٣ ، ص ص ٢٦٧ - ٢٩٨ .

(٣٠) م.ن ،مج٣ . ص٣٠٩ ؛ كذلك ينظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٤٧ .

(٣١) الأحزاب ، الآيات ١٠ . ١٢ . في تفسير الآيتين الكريمتين ينظر : الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ت : ٣١٠ هـ ، جامع البيان في تفسير القرآن ، (بيروت - ١٩٨٨) ، مج١١ ، ج٢١ ، ص ص ١٢٩ - ١٣٦ .

(٣٢) لمزيد من التفاصيل ينظر : الغزالي ، مشتاق بشير ، تطور الأستشراق البريطاني في كتابة السيرة ، ص ص١١٧ - ١٢٢ .